اصل اللغات الساميّة

هي مقالةٌ لكاتب هذه المجلة تليت في ردهة المدرسة البطريركية في بيروت يوم احتفالها بتوزيع الجوائز سنة ١٨٨١ وطُبعت في مجلة المقتطف في الجزء السادس من مجلد السنة المذكورة ونحن معيدون طبعها في الضيآء اجابةً لاقتراح بعض مشتركينا الادبآء وهي هذه

هو بحثٌ اقترح عليَّ على ضيق الوقت وتشتت البال ونزارة المادّة وضعف العُدّة وعلى كونهِ من المباحث التي تباعدت فيها مسافة الخلاف وخفيت اعلام البيان وكثرت الدعاوي وتخلّف الدليل فمن دون الوصول الى غايتهِ تيهٌ سحيق ومن دون ابدآء الرأي فيهِ ألسنةٌ حداد وصدورٌ حرار ولكني سأتوخى فيهِ ما اظنهُ الاشبه والامثل ولعلّي لا اعدم في جانب الحقّ نصيراً وفي جانب الحلم صفحاً جميلا

المراد باللغات السامية اللهجة التي كانت على ألسنة ابنآء سام بن نوح عليهما السلام ومَن اخذ إخذهم وهم سكان القسم الجنوبي من غرب آسية من حدود الارمن شمالاً الى البحر العربي جنوباً ومن خليج العجم شرقاً الى البحر الاحمر غرباً . وكانت ألسنتهم تنقسم الى ثلاث لغاتٍ في الجملة وهي العربيّة في ناحية الجنوب والعبرانيّة في ناحية الغرب والإرَميّة في ناحيتي الشمال والشرق . وهناك لغاتٌ اخرى من نحو الفينيقية والفِلسطية من اللغات الداثرة والسامرية من لغات المتأخرين والحبشية من لغات ابنآء حام بأفريقية نومئ الى بعضها من جانب الكلام اذ ليس لنا من الذرائع المبلّغة الى موضع البحث فيها ما ينبسط بهِ الرأي ويتهيّأ الحكم وحَسْبنا الكلام

فيما نعلمهُ فاذا استتبّ لنا الحكم فيهِ لم يمتنع علينا الاستدلال على غيرهِ من جانبٍ آخر

ونحن نورد اولاً رأي كل فريقٍ من علمآء هذه اللغات في ايُّها كان اصلاً لسائرها ونتلقّى كل قولٍ بحجّتهِ وما أُورد عليهِ من الدفع ثم نعود الى رأي علمآء البحث المتجردين عن المتابعة والهوى ونأتي في عرض ذلك بما يعنّ للبصيرة القاصرة من هذا القبيل وعلى الله سبحانهُ قصد السبيل

ففي مقدّمة المنتحلين أصالة اللغات علمآء العبرانيّة من اليهود وتابعهم كثيرون من مشاهير علمآء النصرانية وغيرهم قالوا هي اللغة التي فتق الله بها لسان آدم عليهِ السلام وبقيت في ولدهِ شيث حتى انتهت الى ابرهيم عن طريق عابر ابن سام ولذلك سمّيت بالعبرانية . قالوا وكان عابر خارجاً عن عداد الذين بنوا الصرح فلم يعرض على لسانهِ ما عرض على سائر الألسنة من البلبلة . ويستظهرون لصحّة دعواهم بأن كثيراً من الاسمآء الواردة في حديث الخلق وما بعدهُ الى الطوفان مثل آدم وعدْن وفيشون وجيحون وغيرها اسمآء عبرانية . وزعم يوسيفس انهُ وُجد لعهدهِ في هذه الديار عمودٌ من حجر كان منصوباً من قبل الطوفان بأمدٍ طويل عليهِ كتابةٌ بالعبرانية في تلخيص جميع الصنائع والعلوم وانهما كانا عمودين على هذا المثال نصب احدهما شيث والآخر اخنوخ فذهب الواحد في مياه الطوفان وبقي هذا

وادّعت السريان ووافقهم كثيرٌ من مؤرّخي الشرقيين كالمسعوديّ وابن خلدون وغيرهما ان اصل اللغات كلها السريانية ودليلهم في ذلك ان نوحاً والذين كانوا معهُ في الفلك نزلوا بعد الطوفان بأرض الجزيرة وما يليها من

بلاد ما بين النهرين المجاورة لارمينية حيث استقرّت السفينة ولغة تلك البلاد منذئذٍ الكلدانية وهي والسريانية لسانٌ واحد على ما سنبيّنهُ بعد . قلت وهذه الحجّة هي عين حجّة الارمن في مثل هذه الدعوى مع انهم ليسوا من الساميّة في شيء وانما هم فيما ذكروا من سلالة يافث . ويزيدون على ذلك ان الله عز وجل جبل آدم من تربتهم وانزلهُ بأرضهم لان الفردوس كان بأرمينية وهناك علّمهُ اللسان ولما انقضى امر الطوفان اعاد البقية البشرية الى ارضهم واقرّ السفينة في بلادهم فانتشرت من ثمّ اللغة في سائر الارض فكانت فيها نشأة الانسان الاولى ومنها منبعثهُ الثاني . ولهم في ذلك ادلّةٌ اخرى لفظية من نحو ادلّة اليهود لا نطيل بذكرها

وقالت العرب كان اللسان الاول الذي نزل بهِ آدم من الجنة عربيًّا الى ان بعُدَ العهد وطال فحُرّف وصار سريانيًّا فكان ذلك لسان الناس الى حين الغرق . قالوا ولم يكن في الفُلك مَن لسانهُ العربيّ الاّ رجلٌ واحد يقال لهُ جُرهُم فلما خرجوا من الفلك تزوج إرَم بن سام بعض بناتهِ فمنهم صار اللسان العربيّ في ولده عُوص ابي عاد الى آخر ما ذكروا

فأما حجة اليهود فيقال فيها ان العبرانية لم تكن من لغة ابرهيم بدليل ان عشيرتهُ في حاران كان لسانها الكلدانيّ وشاهدُهُ ما ورد في الكتاب من حديث يعقوب ولابان وأنهما حين تعاهدا في جبل جلعاد ونصبا تلك الجثوة من الحجارة سماها يعقوب جَلْعاد وهي لفظةٌ عبرانية وسماها لابان يَغَرْسَهَدُوثا وهي لفظةٌ كلدانية ومعنى التسميتين واحد اي جثوة الشهادة . ومن هنا يُستدَلّ على ان العبرانية كانت لغة الكنعانيين الذين هاجر ابرهيم

اليهم وهم الفلسطيون ومن جاورهم وبهِ يشهد اشعيآء حيث يسمي العبرانية لغة كنعان (الفصل ١٩ : ١٨) . واما تسميتها بالعبرانية وأنها منسوبةٌ الى عابَر فان صحّت هذه النسبة اليهِ فانما هي للشعب لا للّغة بدليل ان اهل كنعان كانوا يسمون ابرهيم عبرانيًّا وهذا اللقب لم يكن بالنظر الى اللغة قطعاً لِما تقدّم قريباً . غير انهُ لما ارتحل العبرانيون عن ارض كنعان فمكثوا في مصر احقاباً متطاولة وخرجوا بعد ذلك الى البرّية فأقاموا بها زماناً وهم في هذه المدّة كلها بين اقوامٍ لغتهم تخالف الكنعانية نُسِبت هذه اللغة اليهم وسُمّيت بالعبرانية وعليهِ فاللغة منسوبةٌ الى العبرانيين لا الى عابر كما توهموها . ويزيد ذلك تأييداً ان جميع الاسمآء الكنعانية القديمة من أعلام الناس والمواضع كأَبيملك وأدوني بازَق وقِرْيَة يَعارِيم وغيرها الفاظٌ عبرانية خالصة مع انها من الاوضاع التي كانت قبل ابرهيم . ولا يصحّ ان يُدَّعى انها حُوِّلت الى العبرانية لان الاعلام تُحكى على اصلها والاّ فقد سقط احتجاجهم بما ورد من الاسمآء العبرانية قبل الطوفان على ما تقدّم في مقالتهم . على ان العبرانيّ من تلك الاسمآء التي يذكرونها قبل الطوفان ليس الاّ الفاظاً معدودة وقد بقي من دونها الفاظ كثيرة بعضها لا ينطبق على لغةٍ من اللغات المتعارَفة البتة وبعضها ينطبق على غير العبرانية فلم يبقَ في ذلك حجّةٌ لاحد . واما مقالة يوسيفس فخبرٌ أبتر لم يشفعهُ تواتر ولم يؤيّدهُ سند ولم يشهد بهِ عيان وهؤلآء المؤرّخون الشرقيون كلهم لم يرد هذا النبأ عن احدٍ منهم ولا سُمِع ان هذا العمود نُقل الى بلادٍ اخرى فلا بدّ من بقآء هذه الرواية موقوفةً حتى تؤيَّد بثَبَتها

وحجّة السريان مدفوعة بأن بلبلة الالسنة المشهورة كانت في بابل مقرّ اللغة الكلدانية حيث اختلطت الالسنة ولم يعد يتميز بعضها من بعض فما الدليل على ان فصيلة ابرهيم سلمت من هذه البلبلة ومن اين يُعلَم ان الكلدانية هي اللسان الذي كان يتكلم به سام والذين نزلوا من الفلك

وحجة الارمن مردودة بمثل ما رُدّت به حجة السريان للنصّ على ان البلبلة كانت شاملةً للالسنة كلها وبأن لغات السواد الاعظم من الامم المعروفة لذلك العهد بقيت بعد البلبلة يشابه بعضها بعضاً ولغة الارمن انفردت بمخالفتهنّ جملةً فهي لذلك ابعدهنّ دليلاً . وبأنهُ لو كانت الاسماء القديمة حجةً في مثل هذا لكانت الحجة للعبرانيين لكونها في لغتهم اكثر . وبعد فقد روى هيرودوطس ان الارمن في اصلهم طارئةٌ من فريجية خيّمت بناحية أراراط فان صحّ هذا القول فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب

ومقالة العرب عاريةٌ عن السند ولكنهم ألقوا دلوهم في الدلآء فتركها حتى يتبيّن دليلها . وفي الجملة فان الدعاوي في ذلك متزاحمةٌ متعارضة فكلّ فتاةٍ بأبيها مُعجَبة وكل قومٍ بما لديهم فَرِحون

وهنا أستميح المعذرة من سادتي علمآء الالسنة وجهابذة اللغات عمّا اجترأت به من التعقيب على أحكامهم فما فعلت استخفافاً ولا تزييفاً ولا اتّخذت هذه الدالّة بين ايديهم الاّ يقيناً بأني واياهم آمّو غرضٍ واحد هو احقاق الحقّ ونبذ الباطل . واسأل اخواني ارباب العصبيّات ان لا يعجلوا الى الموجدة لما اسخطت به كل فريقٍ منهم فسيرون عمّا قليلٍ اني متمثلٌ في ارضآئهم جميعاً وسأثبت لهم بالبيّنات الدامغة ان كل واحدةٍ من لغاتهم

اصلٌ قائمٌ بنفسهِ فينقلبون جميعهم راضين عني ان شآء الله ويكونون نصرآئي في وجوه المعترضين

وذلك أن الذي اذهب اليهِ ولست الأوّل فيهِ أن تلك اللغات بجملتها كانت اصلاً واحداً كما نُصّ عليهِ في حديث البلبلة ودعوى الاصالة للغةٍ منها بخصوصها لا تثبت ولا يمكن ان يقوم عليها دليل والقول بأن في اللغات امّهاتٍ وبناتٍ يتولد بعضها من بعض ليس من المذاهب المرضيّة في وجه البحث . انما القول ان كل طائفةٍ من اللغات مهما تبدّلت هيئاتها وتعدّدت فروعها في الظاهر فالاصل متحقّقٌ في كل واحدٍ من تلك الفروع مُستصحَبٌ في جميعها على السوآء . وما اعتور ذلك الاصل من التباين وتفرّق اللهجة انما عرض بسبب تفرّق المنتحلين لهُ وطول انقطاع بينهم مع ما يضاف الى ذلك من تلوّن الشؤون وتعاقب الاحقاب وما زالت اللغة دائمة التغيّر معرّضة للزيادة والنقصان شأن الارض وما عليها (ستأتي البقية)

الابن والرضاع

وقفنا في احدى المجلات العلمية على المقالة الآتية للدكتور جانُوّ فأحببنا تعريبها لما فيها من الفائدة قال

من المتّفق عليهِ ان افضل ما يُرضَعهُ الطفل لبن امهِ غير انهُ كثيراً ما يتفق ان الوالدة لا تستطيع ارضاع طفلها لمانع فتلتجئ الى تغذيتهِ بلبن الحيوان واكثر ما يُستعمل في ذلك لبن البقر الا انهُ على الغالب لا تتوفر فيه الشروط الملائمة للصحة فيكثر بسببهِ الموت في الاطفال